

حول كتاب:

المجھٰت فی القراءات السبع للإمام ابن خلدون

تحقيق: عبد العال سالم مكرم أستاذ بجامعة الكويت
نعاشره الدكتور عبد العطّالى محمد بيوبي

نعرفة القراءات والعنابة بما اذن :

— لا تخرج عن طابع العصر .

— وهى في الوقت نفسه وسيلة من وسائل المعرفة والتفاهم بين شعوب الامة الاسلامية الواحدة ولذلك لم يخل عصر من عصور الاسلام من دراسة القراءات والحفظ عليها وعلى العلوم المتصلة بها .

ومن اهم جوانب البحث في علم القراءات هو الاحتجاج للقراءة بموافقتها لقواعد النحو واللسان العربي لان اي قراءة لا تثبت موافقتها لهذا اللسان لا تكون قراءة يعتد بها فضلا عن ان تكون قراءة على الاطلاق . ولذلك اهتم العلماء ببحث الحجج التحوية للقراءات توثيقا لها .

ومن ابرز الكتب التي عالجت هذا الجانب هو كتاب « الحجة » لابن الفارسي ، الذي وضعه شرحا لكتاب « القراءات السبع » لابن مجاهد الذي كان اول من سبع السبعة وكان اليه المرجع في من القراءات كما يقول ابن الجزرى .

لكن كتاب ابن على الفارسي جاء — كما قال التقى — طويلا ومطينا الى حد ينفر العلماء فضلا عن القراء المتوسطين وقد انتقده تلميذه ابن ضبي حيث قال في كتابه : « المحتسب » : « فان ابا على رحمه الله عمل

أهمية البحث في القراءات في هذا العصر :

تدخل الى بعض الناس ان البحث في القراءات السبع شيء لا يلائم هذا العصر المزدحم بالافكار المصرية والصراع بينها ، ولكن هذا التخيل سرعان ما يتبدد اذا تذكرنا ان الصراع بين الاقطار والعقائد ائمما يكن على ضرورة الحفاظ على مصادر الانكشار وكتب العقائد .

فالشيوعية مثلا تعنى اشد العنابة بكتب « كارل ماركس » و « فردرىك انجلز » وتنزل كتابي « راس المال » و « الماتيفينتو الشيوعى » منزلة القدس ، وهى في الصين تفعل الشيء نفسه بالنسبة لتعاليم « ماو » حيث تعنى بها وتطبقها طبقات مختلفة وتضفى عليها الشروح والتفسيرات لتكون زادا لهم في الثورة الثقافية وصراع الايديولوجيات .

واذا كان الامر كذلك فان اولى الناس بالعنابة بكتابهم عنابة شاملة لكل النواحي انما هم المسلمون الذين ورثوا الوحي من الله زادا لهم في كل عصر .

هذه ناحية ، ومن ناحية اخرى فان اللقاء الاسلامي الذى يأت ضرورة انما يدعو كل مسلم الى العنابة بالقرآن الذى هو مجمع هذا اللقاء خاصة العنابة بقراءاته المتعددة التي تقرأ بها الشعوب الاسلامية .

يقول الدكتور الحق : « ان هناك سجنا من الشك في نفوس بعض المعاصرين من حيث نسبة هذا الكتاب الى ابن خالويه ودليلهم انه لم يرد في كتب الطبقات ان لابن خالويه كتابا يسمى كتاب الحجة وان ذكرت ان له كتابا في القراءات حللت اسماء مختلفة ولم يحمل واحد منها اسم الحجة ، وبعد جهد استغرق ما يقرب من عامين في دراسة هذا الكتاب ودراسة مؤلفات ابن خالويه استطاعت ان اصدر حکمی في ثقة لا تعرف التردد وباعيان لا يعرف الشك ان هذا الكتاب تسببه الى ابن خالويه صحيحة » .

ويستدل الدكتور الحق على ثقة في صحة نسبة هذا الكتاب الى ابن خالويه بعدة ادلة يمكن تركيزها فيما يلى :

1 — تلمذة كل من ابى على الفارسي وابن خالويه لابن مجاهد ، واذا كان احد التلميذين وهو ابو على الفارسي الف شرحا لكتاب استاذه ابن مجاهد وليس بداعا ان يؤلف التلميذ الآخر — ابن خالويه — شرحا لكتاب استاذه .

وقد نظر ابن خالويه نفسه ان له كتابا في القراءات عند تعرضه لقوله تعالى « انعمت عليهم » — في كتابه اعراب ثلاثة سوره — وفي كتاب الحجة هذا التعليل الذي اشار اليه ابن خالويه في كتابه الآخر مما يثبت ان كتاب الحجة هو لابن خالويه وان عدم شهرة هذا الكتاب يرجع الى ان شهره الحجة للفارسي قد غطى عليه او ان الكتاب في القراءات فاستغنى بنظرها عن ذكر اسم الكتاب بالحجة :

2 — ان عدم ورود كتاب الحجة في الطبقات لا يعني ان هذا الكتاب ليس لابن خالويه لأن لابن خالويه نفسه كتابا نص هو عليها بنفسه وهي موجودة ومع ذلك ليست في الطبقات .

3 — ان كون الكتاب لم يشتهر باسم الحجة لا ي Deduce في نسبة الى ابن خالويه لأن التسمية من عمل المتأخرین وحتى كتاب الحجة للفارسي لم يقدمه ابو على لعند النولة تحت اسم الحجة .

4 — التنافس العلمي في عصر ابن خالويه يفرض عليه ان يؤلف كتابا في الاحتجاج للقراءات لأن ذلك كان طابع عصرى .

كتاب الحجة في القراءات فتجاوز فيه قدر حاجة القراء الى ما يجنو عنه كثيرا من العلماء » كما قال « وقد كان شيئا ابو على عمل كتاب الحجة فاغمضه واطاله حتى منع كثيرا من يدعى العربية مفضلا عن القراء واجنفهم عنه ومع هذا الاطناب الذى عابه العلماء فان ايا على كان يعتقد في اللغة على القياس .

ورغم المختصرات التي وضعت لكتاب « الاوجه لابى على الفارسي » فان الحلجة مع ذلك ظلت ماسة الى كتاب جيد للاحتجاج للقراءات احتجاجا يعتمد على :

— الاختصار

— الرواية والسماع في اللغة .

زمن اجل هذا وضع الامام الحسين بن احمد بن خالويه (المتوفى بطلب سنة 370 هجرية) كتابه « الحجة في القراءات السبع » متحاشيا الانتقادات التي اخترت على كتاب الفارسي فأقامه على الایجاز وعلى اخذ اللغة من السماع .

وقد ظل هذا الكتاب مخطوطا مجهولا حتى سنة 1371 هـ حتى اخرجه وحققه الاستاذ الحق الدكتور عبد العال سالم مكرم استاذ التحو العربي المساعد بجامعة الكويت ثم نشرته دار الشروق في بيروت في 388 صفحة من القطع الكبير .

والامام ابن خالويه له منزلته المromote في علوم اللغة قالوا عنه « كان ااما واحد افراد الدهر في كل قسم من اقسام العلم والادب ، وكان اليه الرحلة من الآفاق وكان آل حمدان يكرمونه » .

والدكتور عبد العال سالم من الرجال المتأثرين في جد على الدراسات القرآنية لا ينتهي الى رأى الا بعد التفك الطويل واستنفاذ الذهنية في الاستنتاج كما تنبئ ابحاثه ومقالاته .

اما الكتاب فهو طلبة كل طالب في القراءات وقد استطاع مؤلفه ان يفني به طالب الفائدة في اسرع وقت . لكن هنا قضية رئيسية وهى : هل هذا الكتاب — كتاب الحجة لابن خالويه — هو حقا لابن خالويه او ان نسبة الى ابن خالويه فيها مقال ؟

القراءات وقد وقع التنافس في كثير من الفنون في عصره ولم يؤلف ابن خالويه في جميع تلك العلوم .

5 - ان الاحتجاج بأن اسلوب ونهج كتاب الحجة لابن خالويه متقارب مع اسلوبه ونهجه في كتبه الأخرى لا يصح لأن اسلوب تلاميذ ابن مجاهد جميماً كان يتواتي الاختصار .

6 - ان الاستدلال بالزمن من الاستدلالات الواهية ومتى كان النقل عن اعلام سابقين في الزمان دليلاً على نسبة كتاب شخص معين ما لم تقم ادلة خارجة على تصحيح هذه النسبة .

7 - ان المشابهة بين النصوص وتقاريرها في المعنى لا تفيد شيئاً في الواقع لأن نصوص أبي على الفارسي نفسها تتقارب مع ما قاله النحويون المعاصرون للفارسي

8 - تاريخ النسخ لا يمكن الاعتماد عليه حيث ان النسخة عارية عن اسم الناشر ولو ذكر لامك الباحث عنه وعمره وزنه زيادة على ان الخط ليس من الخطوط المتداولة في القرن الخامس المجري .

وينتهي الاستاذ الفارسي الى انه يميل الى ان هذا الكتاب احد المختصرات التي اختصر بها كتاب الحجة الاصلي قام به عالم مجهول .

وبعد تركيز ادلة الحق وملاحظات الاستاذ الفارسي عليها على النحو الذي فعلت فلعل القارئ المتحقق يلتقي مع نظرة فاحصة على الادلة والملاحظات مما ، ولا ادعى انتى حكم بين الاستاذين الفاضلين فهما معاً اكثر مني فضلاً ولكنني هنا متخذ صيغة القارئ الذي يقرأ بعقله ويزن الدليل بالدليل ويتحرى وجه الحق للحق وحده مع شكرى العميق للحق والنقد لاتاحتها هذه المفرحة لي ولخدمتها الفكر الاسلامي بمثل هذا الحوار الذى اصطنع اسلوب المناقشة الجادة الهادئة بعيداً عما يمكن ان يكون منافياً في امثال هذه المناقشات .

ولى على ما يقول الاستاذ الناقد ملاحظات :

1 - صحيح ان تلمذة ابن خالويه لابن مجاهد لا تكفى وحدها في اثبات نسبة الحجة الى ابن خالويه ولكنها يصح ان تكون عاملًا مساعدًا لا يمكن نفي اثره في

5 - من اوضح ادلة التوثيق ان اسلوب الكتاب ومنهجه يتوافق تماماً مع اسلوب ابن خالويه ومنهجه في كتبه الأخرى .

6 - ان الاعلام الذين سجلهم ابن خالويه في كتابه كانوا اسبق منه زمناً .

7 - تقارب بعض النصوص في مؤلفات ابن خالويه مع بعض نصوص الحجة ويقول الحق « لا بالغ اذا قلت ان هناك نصوصاً بأسلوبها وكلماتها في هذه المؤلفات هي بعينها في كتاب الحجة » وفملاً اورد الحق ادلة وفقرات من كتب مختلفة لابن خالويه مقارناً بينها وبين كتاب الحجة .

8 - ان كتاب الحجة اقدم من حيث النسخ من الكتب الأخرى التي وصلت اليها لابن خالويه اذ هو نسخ سنة 496 هـ بينما كتاب القراءات نسخ سنة 600 هـ الا ان الاستاذ « محمد العابد الفاسي » الاستاذ بجامعة القرويين في مقال له بمجلة اللسان العربي مجلد 8 ص 1 سنة 1390 هـ يناير 1971 صحفة 521 - يشك في نسبة الكتاب الى ابن خالويه كما يشك في ادلة المحقق على هذه النسبة على النحو التالي وحسب الترتيب الذي ذكرته :

1 - تلمذة ابن خالويه لابن مجاهد لا تكفى لاثبات النسبة .

2 - عدم ورود اسم كتاب اسم الحجة لابن خالويه في الطبقات « فان كتاب الحجة جدير بأن يذكر في اول قائمة كتب ابن خالويه لو صحت النسبة وحيث لم يذكر في كتب الطبقات ولا ذكر في باقي كتب ابن خالويه بهذا دليل على عدم صحة نسبة إليه » .

3 - يقول الاستاذ الفاسى ان النسخ المعتبرة من الحجة لابى على الفارسى مكتوب بظاهر اول ورقة من اجزائه بخط عريق في القدم « الجزء السابع من كتاب الحجة لقراء الامصار . الخ » فمن این الجزم بأن ابا على الفارسى لم يسم كتابه بالحجة » .

4 - ان التنافس العلمي في عصر ابن خالويه لو بلغ ما بلغ لا ينبع حتميًّة ان يؤلف ابن خالويه في

قد ولد بعد ان مراعاة الزمن في التحقيق امر بالغ الخطورة بل قد تتوقف عليه صحة التحقيق وعدمها .

7 - ان المشابهة بين النصوص بين مؤلفين لا تصل الى حد استعمال جمل بذاتها بنفس الحروف كما يحدث مع مؤلف واحد لكتابين .

8 - كون النسخ عارية عن اسم الناشر لا ينفي ثبوت النسبة اما كون الخط ليس من الخطوط المتدولة في القرن الخامس فذلك محل اختلاف وجهات المحققين وعدم اتفاقهم وأقطع بان هذا الخط من خط القرن الخامس او ليس فيه مسألة لا يؤخذ فيها برأ واحد ولو كان هذا الكتاب مختصرا لكتاب الفارسي لوردت فيه اشارة ما الى ذلك لكن ذلك لم يحدث .

وقد احس الاستاذ الفاسي ان هذه الملاحظات لا تنفي نسبة الكتاب الى ابن خالويه فقال : « كما لا يمكن ان تنفي عنه نفيها قاطعا » .

من هنا فان العقل يرى ان هذه النسبة صححة نشبه الكتاب بكتاب ابن خالويه واشتراكه فيها في جمل بعضها ولتصور الجو العلمي في القرن الخامس ووضع ابن خالويه العلمي في هذا العصر .

على ان الذى يقطع هذا الجدل كله حول نسبة الكتاب لابن خالويه ان مقدمة « تاج العروس » تنص صراحة على ان من المراجع التى اعتمد عليها الزبيدي في كتابه كتاب الحجة لابن خالويه واذا لم يكن كتابنا هذا موضع الحديث فain كتاب الحجة لابن خالويه ؟ الا يكون ذلك النص قاطعا اقطع من ورود اسم الكتاب في الطبقات .

ولا يقلل بعد ذلك من أهمية الكتاب العلمية في ذاته وانه سد حاجة المكتبة الإسلامية في المادة التي الف فيها وقد سبق لآرثر جيفري ان حق مقدمتين في علوم القرآن هما مقدمة ابن عطية ومقدمة ذكر أنها لعالم مجاهول فجهل المؤلف لا يقلل من قيمة ما الف .

جزى الله ابن خالويه ، والحق ، والنقد ، خير الجزاء ، واعان الله كل العاملين في حقل الفكر الإسلامي على امرهم وسد خطاهم .

مثل هذا الجو العلمي استاذ يضع كتابا في من واحد تلاميذه يضع شرحا على كتاب استاذه فمن الطبيعي المعاد حينئذ ان يتوجه تلميذ آخر للمناقشة وللادلاء بذلك في نفس الموضوع خاصة اذا عيب على كتاب الفارسي بأنه طويل معتمد على القياس وجاء كتاب ابن خالويه مختصرا معتمدا على السماع .

2 - عدم ورود اسم الكتاب في الطبقات او قائمة كتب ابن خالويه ليس دليلا قاطعا على نفي النسبة لأن الطبقات والفنمارس ليست هي المرجع الوحيد في هذا الموضوع لأن هذه الفمارس سقطت منها كتب كثيرة لمؤلفين كثرين منهم ابن خالويه نفسه وغيره لأن هذه الفمارس لا يمكن ان تحصى جميع ما كتب الكاتبون ولأن ما يحصونه ليس معموصا من يد الحادثات وما اكثر ما ضاع من كتب ومخطوطات قد لا يعلم بها احد .

3 - ان الكتابة على احدى النسخ العتيقة للحجۃ للفارسي لا ينهض دليلا على ان هذا الكتاب كان مسمى بهذا الاسم عند ما ظهر لأول مرة خاصة اذا راعينا قول المحقق ان مؤلفه الفارسي لم يقدمه لعهد الدولة تحت هذا الاسم فربما ظهرت التسمية بعد ظهور الكتاب بمدة .

4 - التنافس العلمي وعدم تأليف ابن خالويه في بعض الفنون التي راجت في عصره لا ينفي نسبة الحجة اليه لانه ربما كانت هذه الفنون التي لم يؤلف فيها اقل اهمية من حيث التنافس اما من القراءات نكشان من الفنون المقدمة في ذلك العصر والتي تقع حتما في بؤرة التنافس .

5 - قول الاستاذ الفاسي ان اسلوب تلاميذ ابن مجاهد ومنهم كان واحدا قول لا يستقيم مع ما ذكره النقاد من ان كتاب الحجة للفارسي مطول يعتمد فيه على اخذ اللغة بالقياس بينما الحجة لابن خالويه مختص يعتمد على السماع في اللغة مكيف يكون اسلوب هؤلاء التلاميذ ومنهم واحدا ؟

6 - الاستدلال بالزمن من ناحية التحقيق ليس واهيا بل قد يكون قاطعا احيانا فكيف نعتمد نسبة كتاب الى مؤلف مع ان هذا المؤلف يذكر اسم مؤلف آخر لم يكن